

تجليات الجحيم في روايتي الفراشة لهنري شاريري والقوقعة لمصطفى خليفة

Manifestations of Hell in the Novel: The Butterfly by Henri Charrier and
the Shell by Mustafa khalifa

ط. د. حليلة بوخاري¹، أ. د. بهاء بن نوار²

¹ مخبر الدراسات اللغوية والأدبية، جامعة محمد الشريف مساعديّة (الجزائر)

h.boukhari@univ-soukahrass.dz

² مخبر الدراسات اللغوية والأدبية، جامعة محمد الشريف مساعديّة (الجزائر)

b.bennouar@univ-soukahrass.dz

تاريخ الاستلام: 2023/06/08 تاريخ القبول: 2024/06/05 تاريخ النشر: 2024/11/19

ملخص البحث:

Abstract:

Heaven and hell are among the controversial issues that have been studied in conjunction with religious frameworks, and what happens to the body after death? However, the focus in this study will be on hell. We endeavour to study how hell is manifested from different perspectives that have expressed a different kind of hell. Writers have attempted to inspire from this theme in their literary works, thus expanding the meaning and expressing new connotations.

Yet, this research aims to recognise the definition of hell as a concept and its types and to identify its artistic and aesthetic dimensions within the literary discourse. Besides, it highlights how hell is reflected in human life based on a 'thematic' approach that suits my research topic. Finally, the paper concludes with the findings.

Keywords:

Manifestations, Hell, Henri Charrier, Mustafa Khalifa.

تعدّ قضيتا الجنة والنار من القضايا الشائكة التي تمت دراستها، فطُرحت هذه المسألة مقترنة بالأطر الدينية، وأي مكان سيأوي إليه الجسد الفاني بعد الحياة الدنيا؟.. إلّا أنّ التركيز في هذه الدراسة سيكون على الجحيم، ولذا سنحاول دراسة كيفية تجلّي الجحيم انطلاقاً من وجهات نظر مختلفة عبّرت عن جحيم من نوع آخر.. حيث حاول الأدباء على اختلافهم استلهام هذا الموضوع في أعمالهم الأدبية، ليتسع بذلك المعنى ويُعبّر عن مدلولات جديدة.

ومن الأهداف التي يرمي إليها هذا البحث: التعرف على مفهوم الجحيم وأنواعه، معرفة الأبعاد الفنية والجمالية للفظ الجحيم داخل الخطاب الأدبي، إبراز كيفية انعكاس هذا الجحيم على حياة الإنسان..

أما المنهج المعتمد فهو "الموضوعاتي" لأنّه يتناسب وموضوع بحثي. لنصل إلى خاتمة البحث التي تضمّنت النتائج المتوصل إليها.

الكلمات المفتاحية: تجليات، جحيم، هنري

شاريري، مصطفى خليفة.

مقدمة:

يُعدّ العالم الآخر وما بعد الموت من المواضيع التي شغلت تفكير الإنسان منذ الأزل، فسعى بذلك إلى الاستفسار حول ما إذا كانت هناك حياة بعد الموت أم لا؟ وإذا كانت موجودة فعلا فأين موضعها وأي أرض أو سماء تضمّها؟

مثل هذه الأسئلة وغيرها أُرقت العقل البشري، وكانت سببا كافيا لإعمال الفكر والبحث عن هذا اللّغز الدّفين، وأضحى البحث عن إجابات مُقنعة ومُرضية للإنسان محط اهتمام الكثيرين.

وانتقالا بنا إلى موضوع بحثنا وهو "الجحيم" نجد أنّ الكلمة تحمل عبئا ثقافيا ودينيّا ضخما، فتحضّر بوصفها مكانا مخصّصا للعقاب الأبدي.. ليتّسع المفهوم فيما بعد ويشمل مجالات أخرى، فبات الحديث عن الجحيم النفسي والجحيم الفكري، وأصبح الآخر أيضا عبارة عن جحيم.. لتنتقل اللفظة من فضاءها الدّيني والنّفسي والاجتماعي إلى فضاء أدبي رمزي إيحائي..

ليطرح هذا البحث الإشكاليّة الآتية: كيف تجلّى الجحيم في روايتيّ الفراشة والقوقعة؟، ونظرا لأهميّة الموضوع فقد درّس من جوانب أخرى، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: كتاب الموت والعالم الآخر عند سكّان بلاد المغرب القديم للدكتور محمد بن عبد المؤمن، وكتاب أسطورة العالم الآخر في الشّعور الحديث والمعاصر للدّكتورة مديحة عتيق، وغيرها من الكتب التي تناولت هذه الفكرة، إلّا أنّ عنصر الجدّة في هذا البحث يكمن في الجانب المتناول، بالإضافة إلى التطرّق إلى موضوعة الجحيم من جانب إبداعي رمزي بعيدا عن وجهات النظر المعتادة والمألوفة..

1- رمزيّة الجحيم:

يردّ الجحيم _باعتباره مبحثا له أرضيّته المعرفيّة_ من خلال مجالات عديدة من بينها الميثولوجيا، الفكر، الفلسفة، الأدب، علم النفس، وغيرها من المجالات.. إذ امتدّت جذوره لقرون عديدة كان فيها الإنسان متوجّسا من مآله منتظرا لحظة فناء جسده.. ولم يستوعب هذه الحقيقة المرعبة إلّا بعد ارتطامه بكابوس الموت، فأخذ ينسج على منوال حياته الدّنيويّة ويصوّر مشاهد أخرى لحياة مغايرة تماما، تكون فيها الروح بعيدة عن واقعها السّابق..

وقد تجلّى ذلك من خلال عدّة أساطير حول فكرة الموت والخلود، فاتخذ هذا المكان اسم عالم الأموات أو العالم السّفلي، واتّخذت الأسطورة طابع القداسة لدى أمم سابقة، وقد كان يدفن مع الميّت أغراضا من أجل استعمالها في قبره، لتعرض حضارات وادي الرافدين نماذج أدبيّة حول عالمها الغيبي، مثال ذلك جلجامش¹ إذ يعرض هذا النص وصفا للعالم الآخر الذي تجلّى من خلال ظهور شبح أنكيديو واصفا شكل هذا العالم الذي يتخذ من دفن الجسد وكثرة الأولاد وبر الوالدين معيارا للسّعادة.. كما أنّ لهذا العالم سبع بوابات تمرّ عبرها الرّوح.. وعرضت الرّوايتين السّومريّة والأكدية نزول الإلهة إنانا (عشتار) إلى هذا العالم متجرّدة من ملكها عبر بواباته لتصبح كأيّ بشر تعرّض للموت..

وقد أكملت الحضارتين البابليّة والآشورية ما بدأتاه الأُمم السابقة الذّكر، واتّخذت الفراعنة قوانين للعالم الآخر، فإذا نجح الشّخص في اجتياز اختبار وزن القلب² فإنّه ينتقل من الظلام إلى النور لتعيش الرّوح في أبدية مطلقة.. أمّا إذا حدث عكس ذلك فإنّ هذه الرّوح تتحوّل إلى عدم، وليس هناك ما هو أسوأ من ذلك.. لتعبّر

الأوديسة فيما بعد عن رحلة البطل أوديسيوس³ إلى العالم الآخر الذي يخشاه اليونانيون وقدّمت وصفا لحياة الإنسان في هذا المكان.. ولم تختلف الحضارة الرومانية كثيرا عن اليونانية إلا في محطّات قليلة بعد مجيء الدين المسيحي، إذ نجد في الإنياذة طرحا لأسئلة عديدة تراود البشر، أبرزها الرّوح وكيفية بعثها من جديد.. "فعندما تدور عجلة الزّمان بألف من الأعوام، يناديها مناد من السّماء إلى نهر ليثي، في صفّ طويل، وبعد أن ترتشف من مياهه تنسى ماضيها وتتوق إلى العودة في الأجساد من جديد".⁴ فالرّوح بعد أن تشرب من نهر النسيان تنسى حياتها السّابقة وتكون بذلك جاهزة للدّخول في جسد آخر، بعد أن يتمّ تطهيرها من ذنوب الحياة الدّنيوية.. أمّا الجحيم فهو عقاب للذين اقترفوا كبائر الذّنوب.

تناول جورج مينوا هذه القضية في كتابه تاريخ جهنّم، إذ نظّر للجحيم، فجميع الحضارات تطرقت لهذه المسألة.. وشكّل هذا الموضوع هاجسا كبيرا لدى الفلاسفة والأدباء، بحيث أصبح الإنسان يعيش صراعا داخليا يُنازع من خلاله ذاته التي تشكّلت جزاء الدّمار الذي حدث في العالم.. وأضحى البحث عن الأنا وسبب وجودها من أكثر الأفكار رواجاً في العالم وانعكس ذلك على الأدب، إذ نادى الوجوديّة بفكرة الحرّية وتحرير الدّات، واكتشاف الوهم الذي يعيشه الفرد والجحيم النفسي الذي وقف حاجزا في طريقه.. ليستمرّ هذا التناقض مع تيار العبثيّة الذي عكس عبثيّة الحياة.. "فقد عبّر الاتجاه العبثي في الأدب تعبيرا وافيا عن انعدام المعنى وراء السّلوک الإنساني في العالم"⁵، ووصف معاناة الإنسان الباطنيّة..

يردّ الجحيم موازيا للنّار، العقاب والعذاب المتجدّد، وقد عيّنت الدراسات القديمة والحديثة بهذا الموضوع، ممّا أدّى إلى استلهاهم هذه المادّة الثّريّة والكتابة حولها، فاتّسع بذلك النّطاق، وتعدّدت معاني الجحيم لتتباين رموزه ما بين دينيّة ونفسيّة، فتشمل الفضاء والمحيط الخارجي أيضا، ويتجاوزة إلى الآخر الذي أصبح هو أيضا عبارة عن جحيم..

1-1 جحيم السّجن:

يظهر السّجن شكلا من أشكال الجحيم من خلال عدّة أعمال نظّرت لهذه القضية، فقد ورد فصل كامل في كتاب المغرب الأقصى لأمين الريحاني بعنوان جحيم السّجون ونعيمها.. كما ورد جحيم السّجن أيضا في أدب السجون إذ يصبح المكان وجها آخر للمعاناة والعذاب المستمرّ..

إنّ المكان "في تاريخيّته سابق للإنسان.. إلّا أنّ الإنسان يُعيد تشكيل المكان وتحويله إلى أشكال مختلفة حسب احتياجاته الحيّاتيّة"⁶، فقد أصبح هذا المكان نعيما بالنسبة لصاحبه، وقد يضيق ليتحوّل إلى جحيم لا يمكن العيش بداخله... والسّجن عبارة عن منظومة اجتماعيّة سياسيّة وُجدت لردع الجرائم والحفاظ على الأمن العام.. وهو بدوره من الأماكن المغلقة غير المُحبّبة للإنسان إذا ما كان سجيناً، فهو يقيد حرّيته التي جُبِل عليها منذ النشأة الأولى.. وقد شكّل موضوعا بارزا في الأدب بشكل عام، إذ يتجلّى بوصفه مكانا يضمّ مختلف الفئات العمريّة والطّبقات الاجتماعيّة، لتتباين بذلك القضايا الواقعيّة، هذه الأخيرة التي يتّخذ منها الأديب مادّة فنيّة لعمله الأدبي..

إذا ما تناولنا موضوع السجن من جانب تاريخي نجد أنه متجذّر منذ القدم، وقد "ظهرت قضية الأسرى كإحدى نتائج الحرب الحتمية، فقتل الأسرى وذبحوا ومثل بهم وأكلت لحومهم في عصر الهمجية الأولى، بدافع الانتقام والقضاء على الخصم"⁷.. وقد عرف الجاهليون السجون "في الإمارات القائمة على أطراف الجزيرة العربية (المناذرة والغساسنة)، وفي بعض الحواضر (مكة واليمن) ، أما القبائل العربية فكانت بحكم طبيعة حياتها الاجتماعية، وحلّها وترحالها، تعتمد على الأسر لفترة زمنية محدودة إذ لم تكن لديها سجون كما في الإمارات والحواضر"⁸.. فكلّ من يخالف الأوامر يعاقب بالسجن..

أمّا في صدر الإسلام فقد تطوّرت السجون، وأصبحت "العقوبات في المجتمعات الإسلامية تستند إلى القرآن الكريم وإلى السنة النبوية، واجتهادات الفقهاء، فتقوم على مبدأ القصاص تبعاً لنوع الجرم"⁹، فيُعاقب بذلك كلّ من يرتكب الجرائم التي نصّ عليها الإسلام.

وفي العصر الأموي نجد أنّ الانقسام السياسي والخصومة "تزداد عنفاً بمرور الأيام، حتى أصبح القتل والسجن والعذاب أمراً مألوفاً، تمارسه الفئة الحاكمة على خصومها السياسيين"¹⁰، أمّا العبّاسيون فقد استخدموا "السجون على نطاق واسع.. وعملوا من خلالها على حماية مجتمعهم من المفسدين"¹¹.. وقد وصل السجن إلى شكله الحالي من خلال تطوّر تاريخي استغرق قروناً، مرّ أثناءها بأنظمة ودول مختلفة عبر حقب التاريخ..¹²، لتتغيّر بذلك أشكال العقوبة بتغيّر العصر الذي نعيش فيه.

وليست الدول الغربية بأقلّ من العربية في سوء معاملة السجّناء إلى غاية إلغاء قوانين التعذيب "فقد ألغي الوسم بالحديد المحيّى في إنجلترا سنة 1834، وألغي في فرنسا سنة 1832.. وحده السّوط بقي قائماً حتى ذلك الحين في بعض الأنظمة الجزائية (روسيا، إنجلترا، بروسيا).. أصبحت أشكال تطبيق العقوبات محتشمة، فقد مُنع المساس بالجسد"¹³.

ونجد أنّ للرواية -بشكل خاص- طابعها المميّز في استقطاب مختلف المواضيع والفنون الأدبية، لذا تمّ اعتمادها لدى العديد من الأدباء من أجل احتواء التجارب الإنسانية، والتعبير عنها وطرحها للرأي العام ضمن قالب فنيّ مختلف.. فيحضّر السّجن في الرواية باعتباره فضاءً فنياً، يطرح قضايا متعدّدة..

كما يُعتبر السّجن من أكثر الأماكن ظلمة ووحشية، إذ يحمل شتى أنواع الأذى الجسدي والنّفسي "...فالسّجون في الماضي كانت على السّجّناء كالجحيم"¹⁴، وقد تطرّق الروائيون -عرب وغربيون- إلى موضوع السّجن، بحيث طُرحت معاناة السّجّناء بداخله، وكان التعذيب داخل السّجن من أكثر الأشياء إيلاماً للسّجين إذ كانت "هناك ألوان عديدة من صور العذاب النّفسي والجسدي، التي كان يمارسها رجال الأمن على السّجّناء، ومن هذه الصور المتكررة للتعذيب الجسدي ما تبدأ بالضرب وتندرج حتى تصل إلى الموت تحت التعذيب"¹⁵.. مثل هذه التجارب وغيرها كانت مادّة جيّدة للكتابة الأدبية، فهناك من كتب عن نفسه وعن تجربته الخاصة، وهناك من استقى موضوعاته من تجارب الآخرين..

تجليات الجحيم في

روايتي الفراشة والقوقعة:

انتقلت دلالة الجحيم من سياقها التاريخي والأسطوري والديني إلى سياقات أخرى، شملت علم الاجتماع، علم النفس، التيارات الفلسفية والأدبية.. وقد اخترنا السّجن مثالا للجحيم المكاني الذي يكون فيه الشخص مجبرا على العيش في مكان مغلق تتقيّد فيه حرّيته، وتُقمع فيه إنسانيته...

بين أيدينا روايتين كُتبتا استنادا إلى تجربتين شخصيتين وهما: الفراشة لهنري شاريري **Henri Charrier** والتي كُتبت باللغة الفرنسية ونُشرت عام 1966، وتُرجمت إلى عدة لغات، ورواية القوقعة يوميات متلصص لمصطفى خليفة، فقد كُتبت باللغة الفرنسية أيضا ونُشرت عام 2007، ثم تُرجمت إلى اللغة العربية بعد سنة، وتُرجمت بعدها إلى لغات عديدة.. ليتّم إدراجهما ضمن أدب السّجون..

وسنحاول من خلال هذه الدراسة إبراز كيفية تجلّي الجحيم من خلال هذين العاملين الإبداعيين عبر مستويات عديدة، أبرزها العنوان، المتن الروائي، هذا الأخير الذي تجلّى عبر الجانب النفسي، الاجتماعي، الفلسفي والأدبي، لي طرح بذلك كلّ كاتب جحيمه الذاتي أو جحيم مجتمعه..

1-2- على مستوى العنوان:

يُعتبر العنوان من العتبات النصّية الأولى التي لا يمكن تجاوزها عند دراسة أي عمل أدبي معيّن، لذا فهو بمثابة الرأس للجسد.. وتختلف العناوين باختلاف مواضيعها، فهي من أوّل الأشياء التي تجذب القُراء، ومن ثمة فالغاية ليست في الشرح ولا في الوصول إلى غاية الكاتب، وإنّما محاولة للإحاطة بالموضوع، وكذا فتح آفاق جديدة.. وعليه كيف تجلّى موضوع الجحيم على مستوى العنوان في الروايتين؟

وبناءً على ما سبق ذكره، نجد أنّ موضوع الفراشة قد وُظّف في عدّة كتب وأعمال أدبية، دلالة على الآمال المتجدّدة، إذ تردّ الفراشة البيضاء "رمزا للبراءة والطهر والنقاء، هي الحقيقة المطلقة التي لا تتلون"¹⁶. كما اعتُبرت رمزا لعودة الروح النائية:

"The butterfly was adopted as a symbol for repatriation, reflecting the insect's symbolic meaning as a wandering spirit with nowhere to go."¹⁷

"تم اعتماد الفراشة كرمز للعودة إلى الوطن، ممّا شكّل لهذه الحشرة معنى رمزيًا، على اعتبار أنها روح نائية لا مكان لها تذهب إليه"¹⁸ فهي بمثابة الروح التي تريد العودة إلى ديارها.. كما ترمز الفراشة "للوجود"¹⁹، لتُشير إلى التجدد والبعث من جديد.

لذا فأول ما يتبادر إلى ذهن المتلقي من خلال عنوان "الفراشة" الضعف والقوّة في الآن ذاته فالفراشة على قدر جمالها وضعفها على قدر قوّتها..

كما تردّ الفراشة رمزا للأمل، لتحمل هذه الحشرة اللونين الأسود والأصفر، فيدلّ الأوّل على ظلام السّجن ويشير اللون الثاني _الأصفر_ إلى الأمل والتفاؤل والنور الذي كان بطل الرواية مُتمسّكا به، كما تظهر المرأة في غلاف الرواية رمزا للقوّة التي كان البطل يستمدّها منها، فارتبطت آماله بما وراء القضبان... هي الأنثى هي الأرض وهي الحياة بكلّ تفاصيلها..

أما الرواية الثانية (القوقعة_ يوميات متلصص) والتي تحمل معنى من معاني الانطواء والظلام والتوقع

على النفس..

لنجد أنّ العنوان يرمز إلى السّجن والزّنزنة المظلمة التي يغلق فيها البطل على نفسه مسترقاً أخبار السّجناء الآخرين، عن طريق ثقب في الجدار... فيخلق بذلك عالماً خاصاً به، بعيداً عن فوضى العالم الخارجي. ويمكن الإشارة إلى أنّ الجحيم يتجلّى على مستوى العنوان في الروايتين من خلال ضعف الفراشة والرغبة في السيطرة عليها فهي مثل السّجين تماماً، إذ يكون ضعيفاً في مواجهة السّلطة.. أمّا رواية "القوقعة" فهي بمثابة السّجن في ظلامه وانغلاقه على السّجين، ويُشير العنوان الفرعي "يوميات متلصّص" إلى رغبة البطل في التخلّص من جحيمه بتتبّع أخبار الآخرين..

2-2- على المستوى النفسي والاجتماعي:

إنّ الجحيم النفسي عبارة عن "حالة ضيق وغمّ وجوديين نعيشها"²⁰، تعيش خلالها النفس صراعاً وعذاباً نفسياً متكرراً، فيحدث أن تعاني الذات داخلياً وتتصارع.. أليس هذا بمثابة الجحيم؟ أن تكون مجبراً على التواجد في بيئة لا تنتمي إليها، ومكان لا يناسبك.. ألا يمثل الجحيم؟..

تظهر البنية الكليّة المشكّلة للرواية الأولى (الفراشة) من خلال موضوع السجن.. جحيم السّجن، إذ قُسمت هذه الرواية السير ذاتيّة إلى مجموعة من الدفاتر التي ارتبطت بحياة الكاتب "هنري شاريير".. فنجدته يفتتح روايته بعنوان: "طريق العفن"²¹، أيّ طريق هذه التي يقصدها؟ وهل اختارها بكامل وعيه وإرادته أم أنّه مُجبر على ذلك؟

ليحمل العنوان معاناة حقيقيّة، إذ كيف للإنسان أن يُساق إلى المحكمة ينتظر حكماً محسوماً آخره، يسير في طريق محاطة بقذارة العباد ونفاقهم، طريق تبدأ من الزنزنة وتنتهي في قاعة المحكمة.. "سأفودك إلى طريق العفن"²²، وهي طريق مؤدّية إلى السّجن، إنّها طريق وبما تحمله الطريق من شتّى صنوف العذاب والمفاجآت اللا متوقّعة..

"سأكون بعد لحظات ممّهما بجريمة قتل"²³ فلا سبيل للخلاص منها ولا مكان للهروب إليه خوفاً من حكم لا اعترض فيه.. كيف للإنسان أن يتخيّل ذلك، كيف له أن يستصعب لحظات الانتظار مُنتظراً مصيره "كنت أمضي الليالي ساهراً مؤزّقا منذ توقيفي وحتى الآن"²⁴ كانت هذه عبارة "بابييون" أمام القاضي.. إذ كيف للشخص أن يحتمل الدقائق والساعات فيمضي عاماً بأكمله تحت هذا الضغط الهائل.. إنه الجحيم لا محالة.

يبرز جحيم السّجن كموضوع أساسي في هذه الرواية، وتتجلّى المعاناة الحقيقيّة للبطل منذ اللحظة الأولى لدخوله السجن، فتتوالى الأحداث من السيئ إلى الأسوأ، ومن ثمّة الهروب منه، لمواجهة العالم الخارجي من ضبّاط وقطاع طرق وغيرهم.. ليكتشف البطل فيما بعد أنّ هناك شيء أهم من الحرية ومن المعاناة داخل السجن وهو البقاء على قيد الحياة.. "أعظم الأمور شأننا وأعلاها منزلة هي المحافظة على حياتنا"²⁵، وللحصول على حياة مريحة داخل السجن أو خارجه يجب عليك امتلاك القوة والمال..

يظهر الجحيم على مستوى متن الرواية من البداية إلى النهاية تقريباً، وتطرح معاناة الإنسان سواء كان مذنباً أم لا، فالقانون الفرنسي لن يحميه ولن يتساهل مع الجنحة أو الجناية مهما كانت ضالّتها.. "الغالبية العظمى من الفرنسيين لا يؤمنون بأنّ رجلاً له ماضينا يستطيع أن يصبح رجلاً خيراً في أيّة حال من الأحوال. هذا هو الفرق بين شعبنا والشّعب الفنزويلي.. الرجل لا يمكن أن يخسره المجتمع إذا أُعطي الفرصة لكي يصبح إنساناً شريفاً"²⁶.. فالفرصة التي أرادها البطل لم يجدها في وطنه، بل حصل عليها من بلد آخر لا تربطه به أيّ صلة..

يطرح الكاتب فروقا عديدة بين الشعوب وكيفية تعاملها مع مذنبها.. وبالفعل، فقد تحرر "بابيون" وأصبح إنسانا مختلفا يسعى وراء أحلامه وطموحاته "أخيرا تحرّرت نهائيا بعد سنين طويلة من الكفاح"²⁷، لقد كانت رحلة شاقّة ولكنها غيّرت أكثر من شخص إلى الأفضل، ويخرج البطل من السبيل التي وُضع فيها ظلما.. "لقد خسرت الرّهان أيّها المدّعي العام فقد خرجت من طريق العفن نهائيا"²⁸، فيخرج من هذه الطريق التي غيّرت أفكاره ومعتقداته، ليبدأ رحلة جديدة نحو الأفضل.

أما الرواية الثانية (القوقعة) فكان جحيم السّجن أيضا محورها، لتُجسّد حياة مغترب ألقي عليه القبض لأسباب مجهولة بعد عودته إلى وطنه مباشرة، ويتّضح فيما بعد أنّ سبب القبض عليه هو الاشتباه بانتمائه إلى جماعة الإخوان المسلمين، بينما هو هناك لأسباب سياسية مسّت برئيس الدولة.. فيحاول تبرئة نفسه بقوله أنه مسيحي الديانة وملحد التفكير، وهذا ما جعل الجميع ينفر منه..

ليتقوقع على نفسه داخل السّجن ويُعايش "الصراع الأبدي بين السّجين والسّجّان.. كلّ ذلك ممزوج برائحة التعذيب، العذاب الإنساني، رائحة القسوة"²⁹، فالتعذيب الذي لقيه في السّجن جعله يستسلم للأمر الواقع دون أدنى مقاومة، ليتعلّم قوانين جديدة ويخضع لها منذ لحظة دخوله إلى السّجن "علّموني منذ تلك اللحظة أن أقول: "يا سيّدي".. وهي تحمل كلّ معاني الدّل والعبوديّة"³⁰، إنّ المعاناة التي يخضع لها البطل لا تقارن بغيرها، فالألم المتجدد جعل منه شخصا مختلفا، ليصبح بعد ذلك انطوائيا وحيدا منعزلا عن العالم..

صار "موسى" يتلصّص على أخبار السّجناء بعدما كان يفعل ذلك مع ذاته، فتارة يتقوقع على نفسه ليعيش جحيمه الذاتي، وتارة أخرى يخرج من حزنه وانطوائه من أجل معرفة ما يدور في العالم الخارجي من أحداث، فتطرح الرواية صراعا نفسيا من أجل البقاء، هذا الصدام الذي كان سببه سياسيا ثم دينيا.. يكون فيه الدين الإسلامي شُبهة بالنسبة لمجتمع خاضع لظلم السلطة وجبروت الحاكم.. أضحى الإنسان وسيلة للتنفيس عن الغضب والعقد النفسية.. في السّاحة الأولى فتحت جهنّم أوسع أبوابها، وكنا وقودها"³¹، فقد كان لكلّ سّجّان ضحاياه الذين يتفنّن في تعذيبهم.. أن تشعر بالألم.. ألم الضرب.. لا مجرد الألم الموضعي للضربة.. إنما بالألم الإهانة حين تُحسّ أنّ كلّ ضربة توجّه إلى جزء من جسدك توجّه معها ضربة أخرى إلى كيائك كلّ، إلى إحساسك وكرامتك"³².. ليعايش البطل هذا الجحيم الذي غيّر مسار حياته، فبات ينظر إلى العالم نظرة رعب وخوف أبديين..

يظهر الجحيم النفسي في الروايتين من خلال المعاناة النفسية والمشاهد التي تكاد تتخيّلها من دقّة الوصف، وصف الألم، وصف العذاب المتكرّر والخيبة الدائمة.. التي تجاوزت الأنا لتبرز اجتماعيا على شكل معاناة رصدها كلا البطلين من خلال التواجد داخل مجتمعات تنبذ الفرد وتتلذّد بتعذيب الآخرين، وهذا شكل آخر من أشكال الجحيم.. جحيم الآخر، جحيم البشر.. هؤلاء الذين تجرّدوا من إنسانيتهم من أجل الشعور بلذّة مؤقتة تُرضي ذواتهم...

طرحت التيارات الفلسفية والأدبية قضايا تمثل الصراع الداخلي الذي يُعدّ جحيما بالنسبة للشخص، فقد انقلبت الموازين بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، وتشّتت الذات فكانت الحياة دون جدوى، لينعكس ذلك على الأدب من خلال التيارات الوجودية والعبثية والعدمية، التي عبّرت عن الوضع الراهن.. فقد نادت الوجودية بفكرة التحرّر من جميع العوائق التي تُشكّل حاجزا للأنسا، وعكست العبثية التناقض الداخلي للأنسا البشرية.. فبعد البحث المستمر عن معنى الحياة نصل إلى نتيجة واحدة وهي عبثيتها، لتبحث العدمية عن فكرة العدم، هذا الأخير الذي لولاه لما أدركنا حقيقة وجودنا "العدم ليس مجرد اللاشيء ولكنه الجانب الآخر لوجودنا"³³، فالخوف من المجهول ومن المستقبل هو ما يجعلنا نعيش القلق المستمر.. ألا يُمثّل هذا صورة من صور الجحيم؟

تطرح رواية الفراشة شكلا مختلفا من العذاب، التفكير في الغد.. هذا الجحيم الذي يظهر على مستوى شخصية "هنري" من خلال المعاناة النفسية لإنسان بريء يعيش صراعا يوميا داخل قضبان السّجن، فقد تحوّل بين ليلة وضحاها إلى مجرم، "لقد انتهت شخصية كلّ واحد منّا وفي دقيقتين تحوّلنا إلى نزلاء سجن الميناء"³⁴.. أن تنصّل من هويّتك ألا تكون ذاتك، أن تمضي الأيام والأشهر والسنوات وأنت تتقمّص دور السجين، أن تخفض صوتك ولا ترفع عينيك أمام سجانك حتى وإن كنت مظلوما.. ذلك هو أصعب شعور.. ليختزل لنا الكاتب معاناته في سطور الرواية ويكشف عن الوجه الخفي لبلد العدل والمساواة الزائفة، ويمرّرها عبر شخصيات روايته..

أمّا روايتنا الثانية (القوقعة) فقد عبّرت عن المثقّف الذي بنى آمالا عديدة حول بلاده، ليصطدم بالواقع الأليم.. فقد وقف في مواجهة نظام سياسي أثر سلبا عليه.. ليفضّل البقاء داخل قوقعته وكأبته وحزنه ولم يتمكّن من مواجهة العالم الخارجي.. كما اختار أن يُعلن الإلحاد هربا من واقعه الذي يعكس الصراع الطائفي.. فقد تجلّى الجحيم من خلال الآخر الذي وقف مُعاديا للأنسا، مُحطّما لطموحاتها، ليواجه "هنري" مجتمعا بأكمله، نظاما، و أشخاصا رغبوا بتدميره.. وكذلك بالنسبة لـ "موسى" الذي عايش الألم والمعاناة بسبب بني جلدته.. فالجحيم الذي عانى منه الطرفين جعل من الأوّل شخصا مختلفا متفائلا غير أبه بما قد يعترضه في طريقه من صعاب، وجعل من الثاني انطوائيا ومنعزلا عن الأشخاص وحثّى عن ذاته.. ليبرز التناقض الفكري والجحيم من خلال رحلة البحث عن الإله التي قادت "هنري" من الإلحاد إلى الإيمان، وأجبرت "موسى" على إعلان إلحاده بعد أن كان مؤمنا..

أصبح السّجن عبارة عن جحيم، إحساس الرفض، وتحطيم الأحلام.. ألا تجد أرضا تعترف بك من أصعب الأمور التي قد تحدث، فكونك تحمل لقب سجين يجب عليك أن تتحمّل جميع العواقب.. لسوء الحظ لا يمكنكم البقاء في ترينيداد ولا في أيّ جزيرة إنجليزية³⁵ فعندما تكون سجيننا محكوما عليه بالأشغال الشاقة هي وصمة عار تحملها مدى الحياة.. لقد كانت هذه الفكرة متداولة لدى أغلب السّلطات والمجتمعات، ففرنسا بلد النبل والاحترام لن تظلم مواطنيها.. فالظلم والقهر والمعاناة جميعها تجعل الشخص يتغيّر من الجيّد إلى السيّئ أو العكس.. مثلما حدث مع بطلنا، فقد أصبح شخصا مُغايرا، ولكن هناك ذكريات لن يستطيع نسيانها وستبقى فرنسا بالنسبة إليه بلد الجحيم.. كان يجدر بالسلطة استئصال الجرم وليس المجرم، فالهدف هو بناء أفراد أسياء وليس هدمهم وتعذيبهم بطريقة همجية وحشية.. والإنسان الذي لا يجد العدالة في بلد موسوم بها تحت

شعارات زائفة_ سيبحث عنها في أرض مختلفة، والذي لا يجد لنفسه مكانا بين بني جلدته سيعثر عليه مع الغرباء حتى وإن كانوا من دين مغاير وجنسية مختلفة ولغة أجنبية..

وفي المقابل يتحوّل الإنسان إلى سجين داخل وطنه، بل ويُلَاقى العذاب بمختلف أنواعه.. فيتباين الجحيم بحسب الظروف المعاشية وكذا الحالة النفسية للشخص، ففرنسا في الرواية الأولى هي بلد الجحيم، هي جزيرة الشيطان، وهي ذاتها في الرواية الثانية بلد العلم والثقافات المتنوعة، والأديان المختلفة...

فالذكريات التي جعلت "بابيرون" يهرب باحثا عن مكان يعترف به كإنسان، هي نفسها التي جعلت "موسى" يعود إلى وطنه بحثا عن شعب يُقدّر إنجازاته.. ليصل بطلنا الأول إلى مُبتغاه بعد محاولات عديدة باءت بالفشل، وينجح في تحقيق ذاته..

وعلى النقيض من ذلك تتحطّم طموحات بطلنا الثاني مع أول صدمة يُلَاقها ببلد أحلامه، فلم يشفع له دينه ولا إعلانه للإلحاد.. ليتغيّر كليًا بعد الوضع الذي ألَمَّ به إلى شخص كتوم وانطوائي، بعد أن هجره السّجناء وابتعدوا عنه نتيجة لأفكاره المتطرّفة..

لذا نجد أنّ الجحيم في الروايتين يتجلّى من خلال الإحساس بالألم، بالتفكير في الإلحاد داخل قضبان السّجن، من خلال عبثيّة الحياة داخل السّجن، فيصبح الشّخص يعدّ الدقائق والثواني ليخرج من هذا الجحيم، وحتى بعد خروجه يبقى الزمن الذي عاشه يُشكّل عبئا نفسيًا وفكريًا، فيسعى بذلك إلى تناسيه وعدم ذكره كما حصل مع بطلنا "موسى" الذي حطّمه السّجن معنويًا، وأصبح شخصا انطوائيًا منعزلا عن العالم.. على عكس "هنري" الذي يذكر الزمن بتفاصيله _يوما وشهرا وسنة_ فالأثر الذي تركه السّجن جعله درسا يستفيد منه في حياته القادمة، لتتغيّر بذلك شخصيته إلى الأفضل بعدما عايش جحيما بشتّى أنواعه..

ومن خلال الروايتين نلاحظ أنّ هناك عدّة نقاط مشتركة بينهما بدءا بالموضوع وهو السّجن ظلما.. فالقصّتان ترويان حياة شاين لقيا من الظلم أشدّه ومن الأسر أسوأه.. ليُطرح بذلك الوجه الخفيّ للسلطة، والمعاملات غير الإنسانية داخل السّجون والمعتقلات السياسيّة..

كما يتجلّى التأثير والتأثر كذلك من خلال الشخصية البطلة، ليظهر التشتت الديني بين المسيحية والإلحاد، فتتزعزع بذلك جميع الثوابت والمعتقدات بمجرد الدّخول إلى السّجن.. بالإضافة إلى أنّ العاملين الرّوائيين كُنبا باللغة الفرنسيّة، وهي لغة عالميّة، لتكون فرنسا أيضا مكانا روائيًا مشتركًا بينهما، مع اختلاف وجهات النظر الخاصة بالكاتبين.. ليتشابه العاملين الأدبيين في الموضوع _على اعتباره موضوعا إنسانيًا_ ويختلفا في طريقة طرح الفكرة المراد إيصالها للقارئ.

ليُضفي الجحيم صبغة جماليّة وفنيّة على مستوى المتن الروائي، فقد برز السّجن كموضوع أساسي ساهم في خلق عوالم جديدة ومختلفة، فالتجربة الشخصية _للكاتبين_ جعلت من التفاصيل المسرودة حقيقيّة، تحمل معاناة الإنسان المسجون ظلما.. إذ كان الوصف في غاية الدّقة مما يجعل القارئ يعيش داخل عوالم البناء الروائي، ويعايش معاناة السّجناء بداخله.. وكيفية تعامل كلّ سجين مع وضعه داخل الزنزانة..

فضمّ السّجن فئات مختلفة وطبقات اجتماعيّة متباينة، وطُرحت قضايا عديدة حول الإنسان، الحرية، العدالة، المساواة، والنظام الفاسد.. ليتّم سرد قصّتين لموضوع واحد وهو السّجن، فيبرز الجحيم بوصفه شكلا فنيًا يربط الأحداث، ويؤثر على مصير الشخصيات في الروايتين.

كما تجلّى الجحيم على مستوى المكان والزمان الروائيين، لتُشكّل الذكريات حاجزا بالنسبة للشخصيات، ويصبح المكان غير ملائم للشخص، وينقلب الزمان إلى لعنة تلاحق الإنسان أينما ذهب.. ليكون الآخر الشرير عبارة عن جحيم بالنسبة للذات، فيصعّب على الشخص معاشة معاناة كهذه، وهذا بالفعل ما حدث مع أبطال روايتنا، فقد لاقى "هنري" مختلف أنواع العذاب والضغط النفسي المتكرّر، ليقرّر الهرب رغبة في تغيير مصيره إلى الأفضل، باحثا عن أرض تتقبّل شخصا ظلّم من قبل بلاده.. ليجد _بعد رحلة بحث طويلة_ بلدا يؤمن بتغيير الإنسان حتى وإن كان مجرما..

على خلاف بطلنا الثاني الذي رغب بمستقبل أفضل، فوجد نفسه متّهما لأسباب سياسية دينيّة، فيحاول التأقلم مع وضعه الزاهن وتقبّل فكرة السّجن، ويخلق لنفسه عالما مظلما يعيش فيه الطموحات التي لم تتحقّق بعد على أرض الواقع، ليتفوق من خلاله على ذاته منعزلا عن الجميع..

وخلاصة القول أنّ تجلّي الجحيم يظهر من خلال مستويات عديدة في الروايتين وقد ساهم في تغيير الشخصيات من الأسوأ إلى الأفضل والعكس، فقد تتغيّر الشخصية الطّموحة الإيجابية إلى أخرى مُحبطة سلبية غير مُبالية، وقد تتغيّر الشخصية المتشائمة السلبية إلى شخصية متفائلة سوية.. ليؤثّر هذا التوظيف على المتن الروائي، ويُضفي صبغة جماليّة على العملين الأدبيين..

خاتمة؛

ممّا تقدّم ذكره نستنتج أنّ الجحيم يتجلّى عبر أبعاد كثيرة ومتعدّدة منها ما هو ديني، ومنها ما هو نفسي أو اجتماعي، ومنها ما هو فلسفي وأدبي... كما ينعكس على حياة الإنسان ويؤثّر سلبا على مجرى حياته وعلى نفسيّته.. بالإضافة إلى تأثير الدين والمعتقد على مجرى حياة الإنسان وتحديدده لكيفيّة تعامل الآخرين معه، فمن الصّعب أن تعيش وسط مجتمع مؤمن بفكر إلحادي...

كما نجد أنّ علاقة الأنا بالآخر تتحدّد وفق أطر عديدة ومجالات مختلفة، فتكون إمّا حوارا أو صراعا بين الطرفين، وهذا ما شهدناه مع بطلي روايتنا إذ تقف الأنا المحتجزة في مقابل سلطة ومجتمع بأكمله.. ليظهر جحيم الآخر الذي يؤثّر على الطرف المغاير إذا ما كان يحتلّ سلطة تُحوّل له هذه المهمّة التي يستغلّها لفرض هيمنته على الجميع.. فيكون الشخص في مواجهة ذاته أو مواجهة مجتمعه.

بالإضافة إلى السّجن الذي يعتبر من أكثر المواضيع التي جذبت الكتّاب وكذا القُراء، إذ عدّ مادة ثريّة للكتابة الإبداعية نظرا لصدق التجارب الإنسانيّة المعاشة بداخله، فيظهر جحيمه من خلال المعاناة المعاشة، والتجارب الأليمة التي أثّرت في أصحابها... فتلعب الذاكرة دورها في سرد التاريخ بتفاصيله، إذ كلّما كانت الذكريات مؤلمة ومؤثّرة صعب نسيانها.. فيعيش الإنسان جحيما فكريّا أليما..

الهوامش والإحالات:

- 1- انظر: نائل حنون (2006) ملحمة جليجامش ، دار الخريف ، ط1، دمشق، ص 240-243.
- 2- انظر: برت إم هرو (1988)، كتاب الموتى الفرعوني، تر: فيليب عطية، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، ص12.
- 3- انظر: هوميروس (2013) الأوديسة، تر: دريني خشبة، دار التنوير، ط1 بيروت. 125.
- 4- بربليوس فرجيليوس مارو: الإنياذة، (2011) ج1، تر: كمال ممدوح حمدي وآخرون، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، د.ط، القاهرة. ص306-307.
- 5- نبيل راغب (د.ت) المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبيثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط. ص164.
- 6- مصطفى الضبع (2016)، استراتيجية المكان: دراسة في جماليات المكان في السرد العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، ص 47.
- 7- عبد الكريم فرحان (1979)، أسرى الحرب عبر التاريخ، دار الطليعة، ط1، بيروت. ص6.
- 8- واضح الصمد (1995)، السجون وأثرها في الآداب العربية من الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، ص 15. نقلا عن:
Jawad Boules, Les Peuples et les Civilisations du Proche-Orient Dar Aoud, Beyrouth, 1983, teme pp 64 à 86.
- 9- واضح الصمد، السجون وأثرها في الآداب العربية من الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي. ص 23.
- 10- المرجع نفسه. ص 39.
- 11- أيمن سليمان خالد التميمي (1997)، السجون في العصر العباسي (132-334، 750-945)، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية. ص 59.
- 12- المرجع نفسه. ص 9.
- 13- ميشيل فوكو (1990) المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن، تر: علي مقلد، مركز الإنماء القومي، بيروت. ص53.
- 14- أمين الريحاني، (2018)، المغرب الأقصى، مؤسسة هندواي، المملكة المتحدة، ص 329-14.
- 15- علاء الدين المدرس، (د.ت)، صور العذاب في المعتقلات السريّة، برزخ العالم الثالث، دار الرقيم، دار المأمون، بغداد، عمّان. ص39.
- 16- محمد سلماوي، (2012)، أجنحة الفراشة، الدار المصرية اللبنانية، ط4، القاهرة، ص46.
- 17- Lyndel V Prott, Witnesses to history documents and writings on the return of cultural objects, UNESCO Publishing.p261.
- 18- ترجمة الباحثة.
- 19- يوهان فولفغانغ غوته، (2006)، النور والفراشة رؤية غوته للإسلام وللأديين العربي والفارسي مع النص الكامل للديوان الشرقي، تر: عبد الغفار مكاوي، دار الجمل، ط1، كولونيا (ألمانيا)- بغداد، ص 383.
- 20- جورج منوا (1996)، تاريخ جهنم، تر: أنطوان الهاشم، دار عويدات، ط1، بيروت، باريس، ص 9-20.
- 21- هنري شاريير، (2000)، الفراشة، تر: تيسير غراوي، دار نوبل، ط2، سوريا، ص7.
- 22- المصدر نفسه، ص6.
- 23- المصدر نفسه، ص5.
- 24- المصدر نفسه، ص7.
- 25- المصدر نفسه، ص36.

- 26 - المصدر نفسه، ص 454
- 27 - المصدر نفسه، ص 453
- 28 - المصدر نفسه، ص 455
- 29 - مصطفى خليفة (2018) القوقعة، يوميات متلصّص، دار الآداب، ط 6، بيروت، ص 13-15.
- 30 - المصدر نفسه، ص 20.
- 31 - المصدر نفسه، ص 42.
- 32 - ممدوح عدوان (د.ت)، حيونة الإنسان، دار ممدوح عدوان للنشر، ط 2 ص 15.
- نبيل راغب (د.ت) المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبتية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، ص 165- 33
- 34 - المصدر نفسه، ص 21.
- المصدر نفسه، ص 393 5

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أحمد مختار عمر، (2008)، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط 1، القاهرة.
- 2- أمين الريحاني، (2018)، المغرب الأقصى، مؤسسة هنداي، المملكة المتحدة.
- 3- أيمن سليمان خالد التميمي (1997)، السجون في العصر العباسي (132-334، 750-945)، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية.
- 4- برت إم هرو (1988)، كتاب الموتى الفرعوني، تر: فيليب عطية، مكتبة مدبولي، ط 1، القاهرة.
- 5- برليوس فرجيليوس مارو: الإنياذة، (2011) ج 1، تر: كمال ممدوح حمدي وآخرون، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، د.ط، القاهرة.
- 6- جان بول سارتر، (د.ت)، الأبواب المغلقة، تر: هاشم الحسني، مكتبة الحياة، د.ط، بيروت.
- 7- جورج منوا، (1996)، تاريخ جهنم، تر: أنطوان الهاشم، عويدات، ط 1، بيروت-باريس.
- 8- عبد الكريم فرحان (1979)، أسرى الحرب عبر التاريخ، دار الطليعة، ط 1، بيروت.
- 9- علاء الدين المدرس، (د.ت)، صور العذاب في المعتقلات السريّة، برزخ العالم الثالث، دار الرقيم، دار المأمون، بغداد، عمّان.
- 10- محمد سلماوي، (2012)، أجنحة الفراشة، الدار المصرية اللبنانية، ط 4، القاهرة.
- 11- مصطفى خليفة: القوقعة (يوميات متلصّص)، دار الآداب، بيروت.
- 12- مصطفى الضبع (2016)، استراتيجية المكان: دراسة في جماليات المكان في السرد العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 13- ممدوح عدوان (د.ت)، حيونة الإنسان، دار ممدوح عدوان للنشر.
- 14- مها حسن القصاروي، (2004)، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية، ط 1، بيروت.
- 15- ميشيل فوكو (1990) المراقبة والمعاقبة: ولادة السّجن، تر: علي مقلد، مركز الإنماء القومي، بيروت.
- 16- نائل حنون (2006) ملحمة جلجامش، دار الخريف، ط 1، دمشق.
- 17- نبيل راغب (د.ت) المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبتية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط.
- 18- هنري شاربير، (2000)، الفراشة، تر: تيسير غراوي، دار نوبل، ط 2، سوريا.
- 19- هوميروس (2013) الأوديسة، تر: دريني خشبة، دار التنوير، ط 1 بيروت.

20- واضح الصمد (1995)، السّجون وأثرها في الآداب العربيّة من الجاهليّة إلى نهاية العصر الأموي، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر، ط1، بيروت.

21- يوهان فولفغانغ غوته، (2006)، النور والفراشة رؤية غوته للإسلام وللأدبين العربي والفارسي مع النص الكامل للديوان الشرقي، تر: عبد الغفار مكاوي، دار الجمل، ط1، كولونيا (ألمانيا)- بغداد.

22 - Lyndel V Prott, Witnesses to history documents and writings on the return of cultural objects, UNESCO Publishin